الفصل الأوّل

عصر البحتري

١ ـ الحياة السياسية

تمّ الأمر لبنى العباس ، وبويع السفاح بالخلافة سنة ١٣٢ هـ ، وصرف هذا الخليفة كل همه إلى تثبيت عرش الخلافة العباسية ، بأن أعمل السيف فى رقاب الباقين من بنى أمية . وغيرهم من أولياء الدولة الذين كان لهم أثر محمود فى إقامتها[١] .

وظلت الخلافة تنتقل من قويّ إلى قويّ ، حتى آل أمرها إلى الأمين ، الذى عمل على نقل الخلافة من ولىّ عهده : المأمون إلى ابنه : موسى ؛ فقامت بين الأخوين : الأمين ، والمأمون حروب ، انتهت بقتل الأمين ، وصعود المأمون عرش الخلافة ، فى المحرّم سنة ثمان وتسعين ومائة هـ[٢] (سبتمبر سنة ٨١٣ م) .

وانتهى عصر المأمون ، وقد شبت فيه ثورات فى بعض أرجاء بلاده المترامية الأطراف ، آثار بعضها العلويون ، وبعضها أنصار الأمين المقتول ، وبعضها من لم يرض عن أفعال وزيره الأول : الفضل بن سهل ، كما غلب على طريق البصرة وعاث فيها قوم من أخلاط الناس يعرفون بالزّط[٣] ، سير المأمون إليهم من حاربهم سنة ست ومائتين هـ[٤] . كما قامت بعض الفتن فى شمال بلاد فارس . وقد استطاع المأمون أن يخمد بعض هذه الثورات ، وأوصى ، قبل أن يموت ، أخاه

---

(١) تاريخ الدولة العباسية ص ٥٣ .

(٢) راجع تاريخ الأمم والملوك ١٠ : ١٢٤ وما يليها .

(٣) الزط : جيل أسود من السند إليهم تنسب الثياب الزطية . وقيل : الزط تعريب جت بالهندية ، وهم جيل من أهل الهند . وقيل : إنهم جنس من السودان والهنود . والواحد زطى ، مثل الزنج والزنجى والروم والرومى . وقيل الزط : السبابجة قوم من السند بالبصرة .

(٤) تاريخ الأمم والملوك ١٠ : ٢٥٨ وتاريخ الدولة العباسية ص ٢١٨ .

المعتصم أن يقضي على باقيها . ولما مات المأمون عام ثمانية عشر ومائتين هـ (سنة ٨٣٣ م) خلفه أخوه المعتصم ، فقضى على هذه الثورات[١] ، ولكنه وضع بيده البذور التي عملت على ضعف سلطان الخلفاء العباسيين واضطراب أمرهم من بعده .

ذلك أن المعتصم كان شجاعاً جسوراً يحبّ الشجعان ويعتزّ بهم ، فاستخدم الأتراك ، واستكثر منهم ، فاجتمع له منهم عدد ضخم . نالوا الناس بالأذى في بغداد ، فكانوا لا يتورّعون عن أن يجروا الخيول في الأسواق ، فتدوس الضّعفاء والصبيان . وكان أهل بغداد ربما ثاروا ببعض أولئك الأتراك ، فقتلوه عندما يصدم امرأة ، أو شيخاً كبيراً ، أو صبيًّا . أو ضريراً . ثم ارتفعت الأصوات بالشكوى منهم إلى المعتصم ، فقرّ رأيه على الرحيل من بغداد مع جنده ، وبنى لهم مدينة تدعى : « سامرّا » منحوتة من « سرّ من رأى » ، وأقام معهم فيها[٢] .

أخذ هؤلاء الأتراك ، وهم قوم جُفاةٌ غُلْف القلوب ، يجمعون السلطة في أيديهم ، ويعملون على أن يكون لهم الأمر والنفوذ ، وقد لمعت يومئذ أسماء طائفة من قوّادهم كالأفشين ، وأشناس ، وإيتاخ ، ووصيف . وهم الذين رفع المعتصم من شأنهم ، ثم أدرك خطأه فيما فعل[٣] .

وثبتت قدم الأتراك . بعد أن تبوّأ العرش هرون الواثق بن المعتصم ، عام سبعة وعشرين ومائتين هـ ، فاستخدم القائد التركيّ بغا الكبير في إخماد ثورة الأعراب الذين عاثوا فساداً في المدينة وما حولها[٤] ، كما وكل إلى وصيف التركي أمر إخضاع الثائرين من الأكراد[٥] الذين تطرّقوا إلى بلاد فارس .

صار هؤلاء الأتراك مصدر خطر يهدد سلطان الخلفاء ، بما قبضوا عليه من مقاليد السلطة ، وزاد الأمر سوءاً ما كان بين الأسرة الحاكمة من شقاق

---

(١) الكامل ٦ : ١٨١ و ١٩٤ .
(٢) مروج الذهب ٣ : ٣٤٩ .
(٣) تاريخ الأمم والملوك ١١ : ٨ .
(٤) المرجع السابق ١١ : ١٢ .
(٥) المرجع السابق ١١ : ١٨ .

وإحن[١]؛ فقد ذكروا أن الواثق غضب على أخيه : جعفر المتوكل ، ووكل عليه من يحفظه . ويأتيه بأخباره . فأتى المتوكّل إلى محمد بن عبد الملك بن الزيات يسأله أن يكلم الواثق ليرضى عنه ، فوقف بين يديه . لا يكلمه ، ثم أشار إليه بالجلوس فجلس . فلما فرغ مما بين يديه من الكتب نظر إليه ، وقال : ما جاء بك ؟ قال: جئت أسأل أمير المؤمنين الرّضا عنى ؛ فقال ابن الزّيات لمن حوله : انظروا . يغضب أخاه ، ثم يسألنى أن أسترضيه له ! ! اذهب ، فإذا صلحت رضى عنك ؛ فقام المتوكل أسفاً ، أما ابن الزيات فإنه كتب إلى الواثق : إنّ جعفراً أتانى فى زىّ المخنّثين ، له شعر بقفاه ، يسألنى أن أسأل أمير المؤمنين الرّضا عنه ؛ فكتب إليه الواثق: ابعث إليه، فأحضره، ومُرْ من يجزّ شعر قفاه ، فيضرب به وجهه . قال المتوكل: لما أتانى رسوله لبست ثوباً جديداً ، وأتيته؛ رجاء أن يكون قد أتاه الرّضا عنّى ؛ فاستدعى حجاماً، فأخذ شعرى ، ثم ضرب به وجهى[٢] . فلما مات الواثق سنة اثنتين وثلاثين ومائتين هـ ، وولى المتوكل الخلافة . انتقم من ابن الزيات ، وقتله فى تنور من الحديد ، رءوس مساميره إلى داخل . قائمة مثل رءوس المسال ، وكان ابن الزيات يعذّب الناس فيه . أيام وزارته[٣] .

ظهر الأثر السيئ لطغيان سلطة الأتراك فى عهد المتوكل ، فقد أحسّ المتوكل بتوغل الأتراك فى الدولة . واستئثارهم بأموال الخلافة . وإدارتها . وجيشها ، فأحبّ أن يقلل من نفوذهم . غير أن الأتراك قد شعروا أن قلب المتوكل متغير عليهم ، وأنه يدبر المكايد ؛ ليتخلص منهم واحداً بعد واحد ، وشاهدوا بدء ذلك فى إيتاخ الذى خادعه المتوكل حتى قتله[٤] . فخاف الأتراك على سلطانهم ، ورأوا فى رغبة الخليفة أن يجعل دمشق[٥] عاصمة خلافته بدلا من « سامرّا » نذير سوء ، فلعله أراد أن يستعين بعرب الشام عليهم . وحدث

---

(١) إحن : جمع إحنة وهى الحقد .
(٢) الكامل ٧ : ١٤ .
(٣) مروج المذهب ٣ : ٣٧ .
(٤) الكامل ٧ : ١٨ .
(٥) أخبار الأمم والملوك ١١ : ٥٥ .

أن عقد المتوكل البيعة لبنيه الثلاثة ، بولاية العهد ، وهم : المنتصر ، والمعتزّ ، والمؤيد ، وقسّم البلاد بينهم . ولكن بطانة المتوكل غيرت قلبه على ابنه : المنتصر ، وكانت تعمل على تقريب[١] المعتز ، فخاف المنتصر أن تئول الخلافة إلى المعتز دونه ، وشعر بذلك الأتراك ؛ فالتف قوّادهم حول المنتصر ، وزيّنُوا له قتل أبيه ، ليصعد إلى العرش من بعده ، ونفذت المؤامرة ليلة الأربعاء لأربع خلون من شوال سنة ٢٤٧هـ[٢](١١ ديسمبر سنة ٨٦١م) ، إذ قتل المتوكل ، ونديمه الفتح بن خاقان [٣] ، فى مجلس كان البحترى معهما فيه .

ولم يهنأ المنتصر بالخلافة بعد قتل أبيه ، ولم يستقرّ على عرشها إلا أشهراً ستة ، مات بعدها بالذبحة ، أو بورم فى معدته . أو بمبضع مسموم[٤] ، وخضع المنتصر لإرادة الأتراك . فدفع أخويه إلى النزول عن ولاية العهد[٥] ، حتى لا تصير إليهما الخلافة ، فيعملا على الانتقام ممن قتل أباهما .

توفى المنتصر فى الخامس من ربيع الثانى سنة ٢٤٨هـ (٧ يونية سنة ٨٦٢م) واختار قواد الأتراك أحمد بن محمد بن المعتصم خليفة ، ولقبوه بالمستعين ، وسلبوا منه كل سلطان ، وصار الأمر لبغا ووصيف التركيين ، حتى قال فى ذلك بعض الشعراء :

خليفة فى قفص بين وصيف وبغـا
يقول ما قالا له كما يقول الببغـا

---

(١) المرجع السابق ص ٦٢ . (٢) الكامل ٧ : ٣٧ .

(٣) الفتح بن خاقان بن أحمد (المتوفى سنة ٢٤٧هـ — ٨٦١ م) : أديب شاعر فصيح ، كان فى نهاية الفطنة والذكاء ، فارسى الأصل ، من أبناء الملوك . اتخذه المتوكل العباسى أخاً له وجعل له إمارة الشام على أن ينيب عنه وكان يقدمه على جميع أهله وولده . واجتمعت له خزانة كتب حافلة من أعظم الخزائن . وألف كتاباً سماه . « اختلاف الملوك » وكتاباً فى «الصيد والجوارح» وكتاب « الروضة والزهر » ، وقتل مع المتوكل . وهو غير الفتح بن خاقان بن محمد الكاتب والمؤرخ الإشبيلى صاحب كتاب « قلائد العقيان » فى أخبار شعراء المغرب . مات قتيلا فى مراكش سنة ٥٢٩ هـ — ١١٣٤ م بإيعاز من أمير المسلمين : على بن يوسف بن تاشفين .

(٤) أخبار الأمم والملوك ١١ : ٧٩ . (٥) المرجع السابق ص ٧٥ .

وكان المستعين عندما تولى الخلافة أطلق يد أتامش التركىّ ، وشاهك الخادم ، فى بيوت الأموال ، وأباح لهما أن يفعلا بها ما يشاءان ، وأباح ذلك أيضاً لأمه ؛ فكانت الأموال التى ترد من الآفاق إنما يصير معظمها إلى هؤلاء الثلاثة ، وما بقى بعد ذلك ينفق على العباس بن المستعين ، وكان فى حجر أتامش الذى استولى أيضاً على أمور الخلافة ، فعزّ ذلك على وصيف وبغا ، وقتلاه[١] . وأرسل المستعين إليهما ، وقال لهما : ما طلبت إليكما أن تجعلانى خليفة ، وإنما جعلتمانى أنتما وأصحابكما ، ثم تريدان أن تقتلانى[٢] ؟! وشبت فتنة خرج على إثرها المستعين إلى بغداد ، تاركاً «سامرّا» . ولم يعجب الأتراك انصرافه ، فمضوا إلى السجن وأخرجوا منه المعتز . وكان المستعين قد سجنه وأخاه . فبايعوه بالخلافة ، وجعلوا أخاه المؤيد ولىّ عهده[٣] . وهكذا صارت بغداد فى جانب المستعين ، وسامرّا فى جانب المعتزّ ، وهيأ كل منهما الجيوش لحرب صاحبه . وصعد نجم المعتز ، ووجد المستعين أن الخير له فى أن يقبل خلع نفسه بشروط تضمن له الحياة[٤] . ولم يُصَب المستعين بهذه الفتن وحدها ، بل ثار فى عهده العلويون فى الكوفة وطبرستان[٥] .

لم يكد الأمر يستقرّ للمعتز فى رابع المحرّم سنة ٢٥٢ هـ (٢٥ يناير سنة ٨٦٦ م) ، حتى أراد أن يطمئن على كرسى الخلافة ، فقتل المستعين[٦] ، ليأمن من انتقاضه ، وخلع أخاه المؤيد ، ثم قتله ، لما بلغه من أن بعض الأتراك يريدون إخراجه من السجن[٧] .

ولم يصْفُ الأمر للمعتزّ طويلا . فقد اتفقت كلمة طوائف الجند على خلعه ، عندما طالبوه بعطائهم . فلم يجدوا عنده ولا فى بيت المال مالا ، ثم إنهم قد عاملوه عند الخلع أسوأ معاملة . فقد دخلوا حجرته ، وجرّوا برجله إلى باب

---

(١) أخبار الأمم والملوك ١١ : ٨٦ .
(٢) المرجع السابق ص ٩٤ .
(٣) المرجع السابق ص ٩٧ .
(٤) المرجع السابق ص ١٣٧ .
(٥) الكامل ٧ : ٤٨ و ٤٩ .
(٦) أخبار الأمم والملوك ١١ : ١٤٧ .
(٧) أخبار الأمم والملوك ١١ : ١٤٦ .

الحجرة ، وتناولوه بالضرب بالدبابيس ، فلما خرج كان قمصيه مخرّقاً فى مواضع ، وآثار الدم على منكبه . فأقاموه فى الشمس فى وقت شديد الحرّ ، وصار يرفع قدمه ساعة بعد ساعة من حرارة الموضع الذى أقيم فيه ، وأخذ بعضهم يلطمه ، وهو يتقى بيده ، وأجبروه على خلع نفسه من الخلافة ، ثم دفع إلى من يعذّبه ، ومنع الطعام والشراب ثلاثة أيام ، ثم جصّصوا سرداباً بالجصّ ، وأدخلوه فيه . وأطبقوا عليه بابه ، فأصبح ميتاً[١] . وكان ذلك فى أواخر رجب وأول شعبان سنة ٢٥٥ هـ .

وصعد المهتدى إلى عرش الخلافة بعد المعتزّ فى ٢٧ رجب سنة ٢٥٥ هـ . (١١ يولية سنة ٨٦٩ م) ، ويذكر التاريخ له صفات هى صفات الخليفة العادل ، فيذكر عدله وتقواه ، وكرهه للظلم ، وجلوسه للمظالم ، وإخراجه المغنين والمغنيات من «سامرّا» ، وإبطاله للملاهى[٢] . ولكن ذلك لم يغنه شيئاً أمام طوائف الجند ، فثاروا عليه . فولى منهزماً ، وبيده السيف ، وهو ينادى : يا معشر المسلمين ، أنا أمير المؤمنين ، قاتلوا عن خليفتكم ، فلم يجبه أحد ، فسار إلى باب السجن فأطلق من فيه ، وهو يظنّ أنهم يعينونه ، فهربوا ، ولم يعنه أحد[٣] ، واقتصّ الجند أثره . وأرادوه على خلع نفسه فأبى ، فخلعوه ، بعد أحد عشر شهراً من خلافته ، وقتل فى اليوم الثانى لخلعه فى رجب سنة ٢٥٦ هـ . وإلى هذا الحدّ وصلت الخلافة العباسية والخلفاء العباسيون .

وأخرج المعتمد من السجن وبويع بالخلافة فى ١٦ رجب سنة ٢٥٦ هـ . (١٩ يونية سنة ٨٧٠ م) ، ونصّب أخوه الموفق قائداً للجيش حسمًا لما بين القواد من خلاف ومنافسة ، وقد استبدّ الموفق بالأمر ، وكان رجلا ذا عزم وقوة ، يحب الإصلاح ، فترك المعتمد فى لهوه ولعبه ، فقد كان الغالب عليه الشغف بالطرب ، ومحبة أنواع اللهو والملاهى[٤] ، وانفرد الموفق بالسلطان الحقيقى ،

---

(١) المرجع السابق ص ١٦٢ .

(٢) المرجع السابق ص ١٧١ ، والكامل ٧ : ٩٢ .

(٣) الكامل ٧ : ٩٠ و ٩١ .

(٤) مروج الذهب ٣ : ٤٥٥ .

وضيق على أخيه ، حتى إنه احتاج فى بعض الأوقات إلى ثلاثمائة دينار ، فلم يجدها ، فقال :

أليس من العجائب أن مثلى ... يرى ما قل ممتنعاً عليه
وتؤخذ باسمه الدنيا جميعاً ... وما من ذاك شيء فى يديه
إليه تحمل الأموال طرًّا ... ويمنع بعض ما يجبى إليه[١]

ومنذ بنيت سامرّا اتخذها الخلفاء قاعدة حكمهم ، حتى كان المعتمد ، فتركها عائداً إلى بغداد ، ولم يعد إلى « سامرّا » أحد من الخلفاء بعد ذلك[٢] .

ومع ما عمله الموفق من إعادة شيء من الهيبة للخلافة لم يستطع أن يحول دون محاولة ولاة الأطراف اقتطاع أجزاء من جسم الدولة ، والاستقلال بها بعد أن رأوا استبداد الأتراك بالخليفة ، وانشغالهم بالتكالب على جمع الأموال ؛ فرأينا أحمد بن طولون يحاول الاستقلال بمصر[٣] ، ويدخل فى حوزته بلاد الشام والثغور ، ورأينا السامانيين يؤسسون دولة عظيمة فيما وراء النهر[٤] ، وبعض العلويين يحاولون الاستيلاء على بعض الأقطار[٥] ، والصفارين يعملون على الاستيلاء على فارس وغيرها[٦] .

وشغلت ثورة الزنج[٧] جانباً كبيراً من عصر المعتمد ، فقد خرج فى فرات البصرة رجل زعم أنه من نسل علىّ بن أبى طالب ، وأخذ يجمع إليه السود ، يذكرهم بما هم فيه من سوء الحال ، والرقّ ، والتعب ، ويعدهم ، إن هم اتبعوه ، أن الله سيبعدهم عن هذا العناء ، ويرفع أقدارهم ، ويملكهم العبيد والإماء ، فاتبعه خلق كثير ، واستولى بهم على بلاد عدّة ، وشبت بينه وبين أهل البصرة معركة عنيفة ، غرق فيها طائفة كبيرة من أهل البصرة ، وقتلت طائفة ، قال صاحب

---

(١) الكامل ٧ : ١٨١ .
(٢) المرجع السابق نفسه .
(٣) المرجع السابق ص ١٢٨ و ١٦٤ .
(٤) المرجع السابق ص ١١٠ .
(٥) المرجع السابق ص ٩٨ و ١٦٣ .
(٦) المرجع السابق ص ١٠٣ و ١١٥ .
(٧) راجع أخبار الزنج فى الكامل وأخبار الملوك فى حوادث سنة ٢٥٥ هـ ، إلى سنة ٢٧٠ هـ .

الكامل[١] : « وهرب الباقون إلى الشط . فأدركهم السيف . فمن ثبت قتل . ومن ألقى نفسه فى الماء غرق . فهلك أكثر ذلك الجمع . فلم ينج إلا الشريد . وكثر المفقودون من أهل البصرة . وعلا العويل من نسائهم . وهذا يوم البيداء الذى أعظمه الناس . وكان فيمن قتل جماعة من بنى هاشم وغيرهم فى خلق كثير لا يحصى . وجمعت للخبيث الرءوس . فأتاه جماعة من أولياء المقتولين ، فأعطاهم ما عرفوا . وجمع الرءوس التى لم تطلب . وجعلها فى خزينة . فأطلقها ، فجاء الناس . وأخذوا كل ما عرفوه منها . وقوى بعد هذا اليوم . وتمكن الرعب فى قلوب أهل البصرة منه . وأمسكوا عن حربه » .

وقد استفحل أمر الزنج . فشمر الموفق عن ساعد الجدّ . ووقعت بينه وبين صاحب الزنج حروب ووقائع انتصر الموفق فى آخرها . وقتل صاحب الزّنج فى أواخر عام سبعين ومائتين هـ . بعد أربعة عشر عاماً . قضاها فى الإفساد والتّخريب .

ويظهر أن الموفق نجح فى كفّ طغيان قوّاد الأتراك . فامتد عمر الخليفة . وظل على عرشه حتى توفى ليلة الاثنين لإحدى عشرة ليلة بقيت من رجب سنة ٢٧٩هـ (١٥ من أكتوبر سنة ٨٩٢ م) . وبويع المعتضد بالخلافة يومئذ . قال المسعودى : « ولما أفضت الخلافة إلى المعتضد سكنت الفتن . وصلحت البلدان . وارتفعت الحروب . ورخصت الأسعار . وهدأ الهرج . وكان مظفراً . قد دانت له الأمور . ... وأديل له فى أكثر المخالفين عليه . والمنابذين له . ... وخلف المعتضد فى بيوت الأموال تسعة آلاف ألف دينار . ومن الورق أربعين ألف ألف درهم ، ومن الدواب والبغال والحمير والجمال اثنى عشر ألف رأس ، وكان مع ذلك شحيحاً بخيلا . ينظر فيما لا ينظر فيه العوام . . . وكان مع ذلك قليل الرحمة . كثير الإقدام . سفاكاً للدماء ، شديد الرغبة فى أن يمثل بمن يقتله »[٢] .

وفى عهد هذا الخليفة مات البحترىّ كما أنه ولد فى عهد المأمون .

---

(١) ٧ : ٨٥ .

(٢) مروج الذهب ٣ : ٤٦٢ .

٢ ـ الحياة الاجتماعية

اختلط العرب بعد أن تمت الفتوح فى العهد الأموىّ بكثير من الأمم المختلفة جنساً ولغةً ودِيناً واجتماعاً، فقد فتحوا البلاد من الأندلس وشمال إفريقية ومصر والشام والعراق وفارس إلى ما وراء فارس، واتصلوا بأعظم مدنيتين قائمتين يومئذ، وهما: مدنية الفرس ومدنية الروم؛ فكان لهذا الاختلاط، والاتصال أثره الكثير فى الحياة الاجتماعية فى العصر العباسىّ.

ذلك أنّ العرب فى العصر الأموىّ ترفّعوا عن مخالطة الأعجام، اعتزازاً بجنسهم، فلما جاء العصر العباسىّ ارتفع شأن الفرس، بما كان لهم من فضل فى تأسيس الدولة، فأخذوا يجهرون بمآثرهم، وما كان لهم من تاريخ قديم ومجد، وأنكر العرب عليهم ذلك، وطال الجدل بين الفريقين، وكان من ذلك انتشار مبدأ الشعوبية[1] الذى يقرّر ما كان للشعوب غير العرب من آثار فى الفكر والمدنية.

وكان من آثار ارتفاع شأن الفرس وغيرهم من الموالى، وما أحسوا به من حرّية بعد ضيق فى العصر الأموىّ ـ أن أطلقوا لأنفسهم العنان فى البحث الدينىّ. ووازنوا بين عقائد أديانهم القديمة وعقائد الدين الإسلامىّ، فانتشرت الزندقة والإلحاد. وتبع ذلك غلبة الشهوات الجسمية على طائفة المستهترين، فأباحوا ما لم يكن مباحاً من قبل، من أنواع الملاذ؛ وكان من الطبيعى أن ينهض فى مثل هذا المجتمع طائفة من الوعاظ، تدعو الناس إلى سواء السبيل، وتأمرهم بالتزام جادّة الدين.

وشاع فى العصر العباسىّ تسرّى الجوارى، وكان خلفاء بنى العباس منذ الهادى أبناء سرارى[2]. ما عدا الأمين فإنه ابن زبيدة بنت جعفر المنصور،

---

(١) تاريخ الأدب العربى، فى العصر العباسى للأستاذ السباعى بيومى ص ١١. والشعوبية مبدأ من يصغر شأن العرب، ولا يرى لهم فضلا على غيرهم؛ فقيل لمحتقر أمر العرب: شعوبى. أضافوه إلى الجمع لغلبته على الجيل الواحد كقولهم: أنصارى.

(٢) راجع مروج الذهب فى تقديمه لكل خليفة.

وامتلأت قصور الخلفاء والأمراء والأغنياء بالجوارى والقيان[١]، وكان لذلك أثره الكبير فى النشء من ناحيتى الجسم والعقل ، وكان لهؤلاء القيان أثرهن فى الأدب العربىّ يومئذ .

وقد أثر اختلاط العرب بقوم يرون لأنفسهم مجداً ورفعة فى التاريخ . وهذا النسل الجديد من أبناء الجوارى فى أن تخلى العرب عن كثير من مناقبهم التى شبوا عليها فى بداوتهم ، وهذّبها الإسلام فى صدر إسلامهم ، كالاستقلال ، والشجاعة ، والنجدة ، والأنفة ، والعفة ، مما جبلوا على مدحه ، وكان له فى أدبهم صور رائعة ، وأصبحنا نجد عندهم الضعف ، والاستسلام ، والغدر[٢] .

كان المجتمع يومئذ مكوّناً من طبقتين : طبقة الخاصة ، وهى الخليفة ، وأهله ، ورجال دولته ، والأغنياء من الشعب . والثانية طائفة العامة ، وهى المزارعون من أهل القرى ، والصّناع والتجار فى المدن . أما طبقة الخاصّة فقد استأثرت بالخيرات والمال ، تكتنزه حيناً ، وتنفقه على ملذاتها حيناً آخر . فكان الترف مثلهم الأعلى ، وحسبك أن تعلم أنه عثر عند أم المعتز على مقدار خمسمائة ألف دينار ، وظفروا لها بخزائن تحت الأرض فيها أموال كثيرة ، ومن جملتها دار وجدوا فيها ألف ألف دينار ، وثلاثمائة ألف دينار ، ووجدوا عندها فى أحراز زمرّداً لم ير الناس مثله ، ومن اللؤلؤ الكبار . والياقوت الأحمر ما لم يوجد مثله[٣] . وقد كان هذا المال سبباً فى انغماس طبقة الخاصة إلى أذقانهم فى الترف والحضارة ، فبنوا القصور العالية ، تحفّ بها الحدائق الوارفة الظلال ، وتجرى من تحتها الأنهار ، وتقام فى أفنيتها البرك الرخامية . كما لبسوا أرق أنواع الحرير ، وجعلوا لحياة العمل لباساً ، ولحياة اللهو لباساً آخر ، وأكلوا ما لذ وطاب من ألوان الطعام ، وشربوا ما شفّ وراق من أنواع الشراب ، وحشدوا فى قصورهم أجمل أنواع الأثاث ، واقتنوا الأحجار الكريمة والجواهر ، وتأنقوا فى تزيين حيطانهم وسقوفهم بصور الذهب والفضة ؛ وتفنن الخلفاء فى الاحتفال بمواكبهم ،

---

(١) القيان : جمع قينة وهى : الأمة المغنية .
(٢) تاريخ الأدب العربى فى العصر العباسى للأستاذ السباعى ص ٢٥ .
(٣) الكامل ٧ : ٧٨ .

وإظهار الزينة والأبهة ، مما أخذ بألباب الناس ، وبخاصة الشعراء .

كان هذا الترف سبباً فى أن النفوس قدّست المادة يومئذ، لتشبع جشعها، فأحبّ الناس المال حبًّا شديداً ، ومضوا يريدون الحصول عليه من أى طريق كان . فانتشرت الرشوة انتشاراً مخيفاً ، فأثرى من بيدهم تصريف الأمور إثراء سريعاً، وتبع ذلك أنّ ذوى الأمر كثيراً ما أقدموا على استصفاء اموال هؤلاء[١]. لعلمهم أنها جمعت من الحرام .

وكان هذا المال أيضاً سبباً من الأسباب التى كانت تدعو الجند إلى الشغب ، فإذا رأوا طائفة منهم قد استأثرت ببعض المال. أو رأوا مالاً عند الخليفة أو أهله ، ثاروا يريدون نصيبهم من هذا المال[٢]، وقد رأينا بعض الآثار لجشع طوائف الجند فى الحوادث التى أودت بحياة بعض الخلفاء . ولهذا كان القوّاد وكتابهم فى رفاهية من العيش وترف[٣] .

كما كان هذا المال سبباً فى الخلاف بين قادة الجند[٤]، وإيقاع بعضهم ببعض .

تغلبت روح النفعية فى ذلك العصر ، وسادت هذه الروح الصّلات التى تربط بين الناس ، لاندفاعهم فى طريق المادة ، ورغبتهم فى أن يحصلوا على المال من أى طريق كان .

أما طبقة العامة فكانت كادحة مجدّة؛ لتظفر بما يحفظ عليها الحياة. ولهذا كان هذا العصر عصراً خصباً لخروج صاحب الزنج الذى أخذ يمنى أتباعه بحياة أفضل من حياة التعب والشقاء التى يقاسونها ، وذلك للفرق الشاسع بين الطبقتين ، وقد رأينا استجابة قوية لدعوته ، كلفت الدولة كثيراً من الجند والجهد والمال .

ولم يكنّ للدّين سلطانه المطلق على نفوس الخلفاء والوزراء ، إذا استثنينا القليل منهم كالمهتدى ، فتسامحوا فى شرب النبيذ ، ومالوا إلى اللهو ، وقلّ مثل

---

(١) أخبار الأمم والملوك ١١ : ١٠ ، ١٦٠ .

(٢) الكامل ٧ : ٩٠ .

(٣) المرجع السابق ص ٩١ .

(٤) تاريخ الأمم والملوك ١١ : ١٥٦ .

ذلك فى القوّاد والجند ، حتى لقد ثاروا على المهتدى حينما أراد أن يحملهم على سيرة الرّسول وأهل بيته والخلفاء ، فقيل له : الرسول كان معّ قوم زهدوا فى الدنيا ورغبوا فى الآخرة ، وأنت إنما رجالك تركىّ ، وخزرىّ ، ومغربىّ ، وغير ذلك من أنواع الأعاجم ، لا يعلمون ما يجب عليهم من أمر آخرتهم ، وإنما غرضهم ما استعجلوه من هذه الدنيا[١] .

وإذا كان الشعب قد أحبّ المهتدى فذلك لعدله ، ورغبته فى رد المظالم ، ولكنهم استثقلوا منه رغبته فى أن يحملهم على آداب الدين والعمل بمبادئه[٢] .

ولكنّ مظهراً من مظاهر الدين بقى له جلاله وقيمته ، وهو مظهر الحج ، يعنى به الشعب ، وتعنى به الدولة . فتقيم كبيراً من كبرائها يكون على رأس حجاجها فى كل عام .

٣ ـ الحياة العقلية

وجه بنو العباس همّهم نحو العلم والثقافة ، وشغفوا بعلوم الأمم الأجنبية ذات الحضارة والمدنية ، فأقبل العلماء على التأليف والترجمة ، وزادهم إقبالا على عملهم حثّ الخليفة أبى جعفر المنصور عليه ، وحمله الأئمة على جمع الحديث والفقه ، وبذله ، على بخله ، الأموال الجزيلة للعلماء . ولم يقتصر المنصور على تعضيد العلوم الإسلامية ، بل أوعز إلى العلماء والمترجمين من السريان والفرس أن ينقلوا إلى العربية من الفارسية واليونانية فنون الطبّ ، والسياسة ، والحكمة ، والفلك ، والتنجيم ، والمنطق ، وتابعه فى ذلك أولاده وأحفاده ، وما انتهى عصر المأمون والواثق حتى لم يبق علم مما صنف فيه اليونان والسريان والفرس والهنود إلا ترجم منه أكثر من كتاب[٣] . وانقسمت العلوم إلى قسمين عظيمين : العلوم الإسلامية : من شرعية ولسانية . والعلوم الدخيلة : من فلسفة إلهية وطبيعية

(١) مروج الذهب ٣ : ٤٣٣ . (٢) المرجع السابق ص ٤٣١ .

(٣) تاريخ اللغة والآداب فى العصر العباسى للأستاذ السكندرى ص ٤٨ و ١٨٢ .

ورياضية . وغيرهما. وقد ورث القرن الثالث الذى عاش فيه البحترى ما أنتجته النهضة الفكرية من أوائل أيام الدولة العباسية ، ثم أضاف إلى ذلك ثماراً جديدة فى ألوان المعارف .

أما العلوم الشرعية ، كتفسير القرآن ، وجمع حديث الرسول الكريم ، واستنباط أحكام الدين مما عرف بعلم الفقه ، والتدليل على العقائد الدينية مما عرف بعلم الكلام — فقد درست هذه العلوم فى القرن الذى عاش فيه البحترىّ ، وعرفت بعض المؤلفات فيها . كتفسير إسحق بن راهويه[١] المتوفى سنة ٢٣٨ هـ .

وأما العلوم اللسانية ، كالنحو والصرف فقد كان القرن الثالث عصر عناية بها : ظهر كتاب سيبويه المتوفى سنة ١٨٠هـ . فى النحو على مذهب البصريين ، وشرحه تلميذه الأخفش . كما ظهر كتاب الحدود للفراء[٢] المتوفى سنة ٢٠٧ هـ فى النحو على مذهب الكوفيين . ونشأ فى البصريين والكوفيين طبقات تشرح ، وتكمّل ، وتختصر ، وتضع الاصطلاحات . وكان بين البصريين والكوفيين يومئذ نوع من الجدل والمناظرة . فلما كانت بعض الفتن ، كثورة الزّنج نزح الفريقان إلى «بغداد» ، ونشأت طريقة هى خليط من المذهبين ، وتعرف بطريقة البغداديين .

وأما اللغة ، فقد حاول العلماء يومئذ جمع ألفاظ اللغة فى كتاب ، بعد أن وضع بعض العلماء رسائل صغيرة فى فئات من الألفاظ التى تتصل بموضوع واحد ، كالتى تجمع أعضاء الإنسان أو الحيوان أو النبات أو الجماد . ومما زاد اهتمامهم بها أنهم رأوا القوم يجهلون معانى الألفاظ . والفرق بين معانى الكلمات ، كما يحدثنا بذلك ابن قتيبة فى مقدمة كتابه[٣] .

وأما علوم البلاغة ، ولم تكن قد تميزت بعد بفروعها الثلاثة المعروفة اليوم : من معان ، وبيان ، وبديع ، فقد شهد هذا العصر مبدأ تكوينها فى كتاب مجاز القرآن الذى ألفه أبو عبيدة المتوفى سنة ٢٠٦هـ ، عقب أن سئل فى مجلس الفضل بن الربيع عن معنى قوله تعالى : « طلعها[٤] كأنه رءوس الشياطين » ،

---

(١) تاريخ الأدب العربى فى العصر العباسى للأستاذ السباعى بيومى ص ٢٤٠ و ٢٤٢ .
(٢) وفيات الأعيان ٢ : ٢٢٨ . (٣) أدب الكاتب ص ٤ .
(٤) طلع النخلة : ما يخرج منها كأنه نعلان مطبقان ، والحمل بينهما منضود .

وأن الشياطين ورءوسها لم تعرف ؛ فأجاب بأنه على حدّ قوله :

أيقتلنى والمشرفىّ مضاجعى ومسنونة زرق كأنياب أغوال [١] ؟!

وكالذى كان من الجاحظ فى كتابه : « البيان والتبيين » من تعرضه لبعض مسائل البلاغة ، من غير أن تتضح معالم هذه العلوم ، أو تتفرغ مسائلها ، وتنحصر على النحو الذى نراه اليوم . كما أنّ غرام بعض الشعراء المحدثين بالمحسنات والزخارف الصناعية دفع رجال الأدب فى ذلك العصر إلى دراستها ، ووضع أسماء لها ، ومعرفة نماذجها فى الأدب الموروث . وفى القرآن الكريم ، والسعى وراء استقصائها ، وجمع الأمثلة لها ، وتمخض ذلك كله عن كتاب لابن المعتز سماه : « البديع » ، وليس كل ما فيه من علم البديع الذى نعرفه اليوم ، بل أدخل فيه بعض مسائل البيان كالاستعارة والكناية .

ومن تلك العلوم جمع الأدب الموروث ؛ فقد عنى العلماء بجمع الشعر ، وبدت هذه العناية منذ صدر الدولة العباسية ، فقد جمع المفضل الضّبى المتوفى سنة ١٦٨ هـ كتابه المفضّليات بأمر أبى جعفر المنصور ، فلما جاء القرن الثالث رأينا أبا تمام المتوفى سنة ٢٣١ هـ يجمع كتابه « الحماسة » ، ويبوبه . ويدل به على حسن اختياره ، كما أن له مجموعاً آخر سماه : «فحول الشعراء» . جمع فيه بين طائفة كبيرة من شعراء الجاهلية والمخضرمين والإسلاميين ، وله كتاب « الاختيارات من شعر الشعراء» [٢] ، ثم يجىء بعده البحترى فيعارضه . ويجمع كتاباً دعاه : «الحماسة» أيضاً .

وكانت العناية بجمع الشعر تغذّيها دوافع كثيرة ، منها الاقتباس من المعانى القديمة ، ومنها تقويم الألسنة وتعديلها بحفظ الشعر العربىّ البليغ ، ومنها استنباط قواعد النحو والصرف ؛ لأن أخذها من الشعر أسهل ، ومنها معرفة المعانى اللغوية للمفردات . وعلى هذا رأينا المبرّد صديق البحترىّ ، يجمع فى كتابه طائفة صالحة من الشعر يدرس فيها الأحكام ويقتبس القواعد ، ويعرف المعانى اللغوية .

---

(١) المشرفى : السيف . والمسنونة : الرماح ركب فيها السنان . والأغوال : جمع غول وهى : شيطان يأكل الناس . والبيت لامرئ القيس .

(٢) وفيات الأعيان ١ : ١٢١ .

كما كان ذلك وسيلة إلى نقد ما أثر من الشعر العربى ، وقد شهد عصر البحترى كذلك أوائل الكتب التى ألفت فى نقد الشعر ، جمع المؤلف فى بعضها ما وصل إليه من آراء السابقين حتى عصره ، وما لهم من نظرات نقدية فى الشعر الجاهلى ، وبدا فى بعضها النزاع الذى كان دائراً بين طائفة المجدّدين والمحافظين ؛ فظهر فى هذا العصر كتاب طبقات الشعراء لمحمد بن سلام الجمحى ، المتوفى سنة ٢٣١ هـ . وتلاه الشعر والشعراء لابن قتيبة المتوفى سنة ٢٧٦ هـ .

وإلى جانب دراسة الشعر ونقده كان العلماء كذلك يجمعون النثر ويدرسونه ، فظهرت الكتب الجامعة لأشتات من الخطب ، وأنواع من الرسائل ، والعهود ، والمكاتبات ، يشرحونها ويعلقون عليها . ويروون الأخبار التى تتعلق برجالها ، وربما قصدوا بإيراد هذه النماذج بيان معنى بلاغة الكلام . وكان الجاحظ المتوفى سنة ٢٥٥ هـ أول من سنّ هذه الطريقة فى كتبه التى من أهمها « البيان والتبيين » ، وتبعه أحمد بن أبى طاهر طيفور المتوفى سنة ٢٨٠ هـ ، وأبو العباس المبرد المتوفى سنة ٢٨٥ هـ ، فى كتابيه : « الكامل ، والروضة » .

والتاريخ يتعلق بالأدب ، فلم يكد يطلع القرن الثالث حتى كان التاريخ متميز الأنواع : بين تاريخ أنساب ، وتاريخ سيرة الرسول الكريم ، وتراجم ، وتاريخ المغازى والفتوح ، وغيرها ، وكان ذلك ممهداً لوضع تاريخ عام شامل لأخبار القدماء والمحدثين كهذا الذى وضعه ابن جرير الطبرىّ المتوفى سنة ٣١٠ هـ .

وإلى جانب دراسة التاريخ درست الجغرافية . ففى عصر المأمون ترجمت كتب اليونان فيها ، وصححت أغاليط حكماء اليونان فى الفلك والجغرافية[١] ، كما ألف ابن خرداذبة صديق البحترىّ والمتوفى سنة ٢٨٠ هـ ، كتابه المشهور : «المسالك والممالك»[٢] بعد أن جاب أنحاء المملكة الإسلامية . وقد استفاد البحترى من ذلك كله غالباً فى رحلاته ، التى كان يرحلها فى الشرق والغرب حتى قال :

مالى وللأيام ، صرّف صرفها حالى . وأكثر فى البلاد تقلبى[٣]

---

(١) تاريخ اللغة والآداب للسكندرى ص ٥٣ .
(٢) الفهرست لابن النديم ص ٢١٣ .
(٣) صرفت الأيام حاله : بدلته . وصرف الدهر : نوائبه .

أمسى زميلاً للظلام ، وأغتدى ردفاً على كفل الصّباح الأشهب (١)
فأكون طوراً مشرقاً للمشرق الأ قصى . وطوراً مغرباً للمغرب

ومما ينبغى أن يوجه إليه النظر أن التصنيف فى الأدب يومئذ لم يتبع غالباً منهج التبويب المنطقى المنظم ، فلم يكن المؤلف يستوفى الموضوع الذى يكتب فيه ، بل تراه ينتقل من غرض إلى غرض ، ومن فكرة إلى أخرى ، إن عنت مناسبة ، أو ظهر ما يدعو إلى الانتقال ، فهو يسلمك من باب إلى باب ، ولو لم تستكمل الأول دراسة وفحصاً ، وقد يعود بك إلى الموضوع السابق . ويرون فى اتخاذ هذه الطريقة صرفاً للقارئ عن الملل والسآمة . كما ترى ذلك فى كتب الجاحظ ، وابن سلام ، والمبرّد الذى علل اتباع ذلك بقوله : « لتكون فيه استراحة للقارئ ، وانتقال ينفى الملل ؛ لحسن موقع الاستطراف ؛ ونخلط ما فيه من الجدّ بشىء يسير من الهزل . يستريح إليه القلب ، وتسكن إليه النفس . قال أبو الدرداء (رحمه الله) : « إنى لأستجمّ نفسى بالشىء من الباطل ، ليكون أقوى لها على الحق »(٢).

ولكن ذلك لم يمنع بعض المؤلفين من التبويب الدقيق كما فعل أبو تمام فى حماسته ، بل إن البحترىّ غالى فى التبويب ، وتعمق فى جمع النظير إلى النظير ، واضعاً شديد التشابه بعضه إلى جوار بعض ، فى حماسته التى سنتحدث عنها .

أما العلوم الدخيلة فهى أربعة أقسام : طبيعية . كالكيمياء ، والطبيعة ، والطب ، والصيدلة ، والفلاحة ، وعلم الحيوان والنبات والجماد . ورياضية ، كالجبر ، والحساب ، والهندسة ، والحيل (الميكانيكا) ، والفلك ، والجغرافية النظرية . وإلهية ، وتشمل كل ما وراء الطبيعة . وسياسية . كتنظيم الملك ، وتدبير المنزل ، وتدبير المال ، والأخلاق . وكانت الكتابة فى هذه العلوم تتبع النهج الذى كتبت به فى لغاتها ، ولذلك بقى نظامها وترتيب مسائلها كما وضعه

---

(١) الردف : الراكب خلف الراكب . والأشهب : ما كان ذا بياض يخالطه سواد .
(٢) الكامل للمبرد ٢ : ٢١٩ .

أصحابها . وكانت الترجمة فى أوّل أمرها ليست كما ينبغى . لقلة من يجيد اللغتين : العربية . والأعجمية . فلما اتسعت الترجمة فى زمن المأمون أقبلوا يصحّحون ما ترجموا من قبل . ويترجمون ما يجلبه إليهم المأمون من كتب الفلسفة التى أحضرها من القسطنطينية وغيرها من بلاد آسيا الصغرى[١] . وقد كان للفلسفة تأثير كبير فى ذلك العصر . فتأثرت بها العلوم الشرعية . وتأثر بها الأدب . وقد ثار البحترىّ على من أراد أن يخضع الشعر لقواعد المنطق ، كما سنرى .

أما الإنتاج الأدبى : شعره ونثره . فإن الكتابة الإنشائية قد بلغت فى هذا العهد شأواً بعيداً من الازدهار والتقدم . وكان لها ديوان يرأسه كاتب كبير ، يشرف على النهوض بها ، وكانت الكتابة حينئذ هى السبيل إلى الوزارة . فوزراء المأمون والمعتصم والواثق من نوابغ كتاب عصرهم .

وكانت طريقة عبد الحميد الكاتب هى الطريقة التى سار عليها معظم الكتاب فى هذا العصر . فترى فيها قلة الكلف بالسجع . والعناية قبل كل شىء بالمعنى . ولما جاء الجاحظ أولع بالتوازن الموسيقى فى كتاباته . فقسم العبارة أقساماً قريبة التساوى . وكانت ترجمة العلوم الدخيلة إلى اللغة العربية من الأسباب التى ثقفت عقول الكتاب . فحاولوا استقصاء عناصر الموضوع . وترتيب هذه العناصر . وحسن التعليل . وإيراد الدليل . والحق أن تلك الطائفة التى ربيت فى عصر المأمون قد تغذّت بالبلاغة العربية . والآداب الدخيلة ، فنتج ذلك كله طرازاً ممتازاً فى الكتابة العربية . وقد حفظ التاريخ أسماء طائفة من النابغين فى الكتابة يومئذ مثل أحمد بن يوسف . وعمرو بن مسعدة ، وابن الزيات . والجاحظ . والصولى . وآل وهب . وبنى المدبر . والحسن بن مخلد[٢] .

واستعملت الكتابة لأغراض شتى بين رسائل ديوانية تتعلق بإدارة الملك ، وتدبير شئون البلاد . وهى الرسائل التى كان يشرف عليها ديوان الإنشاء ؛ وبين رسائل إخوانية ، ورسائل تناولت تناولا أدبيًّا بعض الأمور الاجتماعية وغيرها

---

(١) تاريخ اللغة والآداب للسكندرى ص ٥٣ .
(٢) ارجع فى هذه الشخصيات إلى كتاب طيف الوليد .

كرسائل الجاحظ . كما ازدهر الشعر فى النصف الأول من القرن الذى عاش فيه البحترىّ ، تحت كنف الخلفاء والوزراء ، بل شارك بعضهم فى قول الشعر ، فما غنى به للمنتصر قوله :

رأيتك فى المنام أقلّ بخلا ... وأطوع منك فى غير المنـــام
فليت الصبح باد ، ولا نراه ... وليت الليل آخر ألف عام
ولو أنّ النعاس يبـــاع بيعاً ... لأغليت النعاس على الأنام[1]

وعرض على المهتدى يوماً دفاتر خزائن الكتب ، فإذا على ظهر كتاب منها هذه الأبيات ، قالها المعتزّ بالله ، وكتبها بخطه ، وهى :

إنى عرفت علاج الطب من وجع ... وما عرفت علاج الحبّ والخدع
جزعت للحبّ ، والحمى صبرت لها ... إنى لأعجب من صبرى ومن جزعى
من كان يشغله عن إلفه وجع ... فليس يشغلنى عن حبكم وجعى
وما أملّ حبيبى ، ليتنى أبداً ... مع الحبيب ، ويا ليت الحبيب معى

فقطب المهتدى بالله وجهه ، وقال : حدث ، وسلطان الشباب[2] .

ولابن الزيات ديوان من الشعر ، ومن الأمراء الشعراء أمراء البيت الطاهرى ، كعبيد الله[3] بن عبد الله ، الذى حدثت بينه وبين البحترىّ محاورة شعرية ، تجدها فى ديوانه

غير أنه مما يلحظ أن كبار الشعراء فى تلك الحقبة نبغوا فى عهد الاستقرار السياسى قبل مصرع المتوكل ، فلما اضطربت الأمور باستبداد الأتراك لم ينجب العصر شعراء كهؤلاء الذين رأيناهم فى عهد الاستقرار ، وكان امتداد عمر هؤلاء مما جعل عهد الاضطراب الذى سقطت فيه الخلافة بعد المتوكل — عامراً بالشعر ؛ وبعد موتهم أقفر الميدان من الشعراء الكبار .

وقد شهد القرن الذى عاش فيه البحترىّ أبا تمام الذى أفرط فى استخدام المحسنات البديعية ، وغالى فى حبّ هذه الصناعة ، غير أنّ كثيراً من الشعراء الذين عاصروا البحترى لم يفرطوا إفراط أبى تمام فى ملء شعرهم بهذه الطريقة الجديدة فى استخدام المحسنات .

---

(١) مروج الذهب ٣ : ٣٩٩ .
(٢) المرجع السابق ص ٤٢٨ .
(٣) راجع طيف الوليد ص ٥٦ .

ولم تخرج أغراض الشعر يومئذ عن الأغراض التى عرفت قبل هذا العصر : من مدح ،وفخر ، وغزل ، وهجاء ، ورثاء ، ووصف ، وحكم ... إلخ ، وازدهر فى هذا العصر وصف الطبيعة ، ووصف مظاهر الحضارة التى ارتقت فى العصر العباسى.

ولقد كان الحديث عن الشعر والشعراء تعمر به مجالس الأدباء والخلفاء الأولين فى ذلك العصر ، فينشدون الشعر ، ويوازنون بين الشعراء ، وفى الكتب الأدبية والتاريخية[1] التى تناولت هذا العصر كثير مما دار فى هذه المجالس عن الشعر ، ونقده ، والموازنة بين الشعراء .

ومما يتصل بالشعر فن الغناء ، فبينهما صلة وثيقة ؛ وقد ظلت صناعة الغناء تتدرج حتى وصلت أوج كمالها فى العصر العباسى عند إبراهيم بن المهدى ، المتوفى سنة ٢٢٤ هـ ، وإبراهيم الموصلى المتوفى سنة ١٨٨ هـ ، وابنه إسحق المتوفى سنة ٢٣٥ هـ ، وظل الاهتمام بها فى أيام البحترى ، فكان الخلفاء والوزراء يشجعون المغنين ، ويتخذون منهم ندماء ، ويجزلون لهم فى العطية ، وما علمنا خليفة أعرض عن سماع الغناء فى هذا العصر إلا ما كان من المهتدى عقب توليته ، فإنه أخرج المغنين ، والقيان من «سامراء» ، كما سبق أن ذكرنا ، غير أن زمنه كان قصيراً .

وكان استبداد الأتراك بشئون السلطان ، واستبداد الموفق بأخيه المعتمد ، مما ساعد على انصراف الخلفاء إلى اللهو واستماع الغناء . وفى هذا العصر ألف حسن بن موسى النصيبى كتباً فى الأغانى ، منها كتاب ألفه للمتوكل ، قال عنه ابن النديم : « إنه ذكر فى هذا الكتاب أشياء من الأغانى لم يذكرها إسحق ، وذكر من أسماء المغنين والمغنيات فى الجاهلية والإسلام كل طريف وغريب »[2].

تلك كانت حال الشعر والكتابة ، أما الخطابة فقد ضؤل أمرها ، بعد استقرار أمر الدولة ، وكان لانتقال السلطان إلى أيدى الأتراك أثر فى اضمحلال شأن الخطابة التى كادت تكون مقصورة على خطب الجمعة والأعياد ، وكان الخلفاء يلقونها بأنفسهم على المنابر ، إذ كانوا يخرجون إلى الصلاة فى أبهة وزينة ، وإن كنا لا نعدم خطباً غير مسجدية ، كخطب صاحب الزنج التى كان يجمع بها الجموع ، يمنيهم بعذب الأمانى وحلو الوعود .

---

(١) راجع أخبار أبى تمام للصولى ، ومروج الذهب للمسعودى فى أماكن كثيرة .
(٢) الفهرست لابن النديم ص ٢٠٨ .